الشك الوجودي عند القديس أوغسطين

د. ناريمان عامر[1]

ملخص:

عُنِيَ هذا البحث بتبيان الشك في رحلة القديس أوغسطين الوجودية على المستوى المعاش، أي بتبيان الشك المحايث لحياته بتقلباتها وتغيراتها، بالاتكاء على ما أورده أوغسطين بقلمه في كتابه الاعترافات، وإظهار تناوب الشك واليقين في حياته من جهة، وعرض الشك المنهجي الذي أطلق عليه اسم الكوجيتو الأوغسطيني في محاولته إثبات اليقين المعرفي على التضاد مع الشك والذي بدا كنظرية أوغسطينية في المعرفة من جهة أخرى، أي تظهير نظرية الشك الأوغسطيني و التي نراها الأصل للشك الديكارتي مع تقديم نقد لبعض ماعرضه أوغسطين في هذا السياق.

كلمات مفتاحية: أوغسطين، الشك الأوغسطيني، الكوجيتو الأوغسطيني، الحقائق اليقينية.

Existential doubt according to Saint Augustine

Dr. Nariman Amer[2]

[1]أستاذة الفلسفة الأمريكية الحديثة والمعاصرة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق.

Abstract:

This research was concerned with clarifying the doubt in St. Augustine's existential journey on the lived level, that is, showing the doubt inherent in his life with its fluctuations and changes, by relying on what Augustine reported with his pen in his book Confessions, showing the alternation of doubt and certainty in his life on the one hand, and displaying the methodological doubt that he called the Augustinian cogito. In his attempt to prove cognitive certainty in contrast to doubt, which seemed like an Augustinian theory of knowledge, that is, the endorsement of the theory of Augustine skepticism, which we see as the origin of Cartesian skepticism, while presenting a criticism of some of what Augustine presented in this context.

Keywords: existential doubt, Saint Augustine

مقدمة:

ظهر مؤخرًا كتاب لفيلسوفٍ أمريكي: جيمس سميث، بعنوان " في الطريق مع القديس أوغسطين"[3] يُرجِع به الكاتب جذور الوجودية كمذهبٍ فلسفيٍ معاصر إلى القديس أوغسطين، ولئن كان الكتاب في عنوانه مثيرًا للدهشة كانطباعٍ أولي، إلا أن الخوض فيه يثير دعوة الوعي الفلسفي إلى إعادة التقاط الفروق بين الانطولوجيا القديمة والانطولوجيا المعاصرة، ذلك أنه ووفقاً للكاتب من الممكن

[2] Professor of Modern and Contemporary American Philosophy - Faculty of Arts and Humanities - Damascus University

[3] James K. A. Smith – **On the road with saint Augustine** _ a real-world spirituality for restless hearts– Brazos press, Baker Publishing Group, 2019.

أن تكون إجابات القديس أوغسطين ملائمة للأسئلة الوجودية المعاصرة، بعد أن اتضح له قصور الإجابات الحديثة. كما يتلمس هذا الكتاب رحلة القلق الوجودي المحايثة للإنسان منذ وجوده الواعي.

وهنا يظهر بوضوح فرق زاوية الرؤية للوجود (القديمة؛ بين الوجود والماهية / المعاصرة؛ بين الوجود والعدم)، لنقول وبإيجاز فيه إجحاف يقتضيه البحث أن معنى انطولوجيا كان يشار إليه في الفلسفة اليونانية بمعنى الكينونة "being" والوجود "existence" أي علم دراسة الوجود بذاته، الوجود بما هو موجود، مستقلًا عن أشكاله الخاصة بل ويعمم على جميع الموجودات. فكان علم الوجود لدى اليونانيين القدماء معادلاً للميتافيزيقا وقد تجلى بأوضح صوره عند أرسطو الذي عرّفه: "علم الوجود بما هو موجود" وهنا كان الوجود الماهوي متمماً للوجود الفيزيقي وفق معادلة الوجود والماهية بينما تطورت هذه المعادلة لتصبح مع التيار الفلسفي المعاصر الوجود مقابل العدم أي أن العدم أصبح متمماً للوجود المعاصر إن صحّ التعبير. قذف العدم الوجوديين المعاصرين في شباك اليأس والقلق والانتحار واللامعنى وجحيم الآخر والاستلاب.. كإجابات عن سؤال الوجود، بينما كان نمط الإجابات في الانطولوجيا القديمة تتنوع وفق تنوع النظرة إلى الفضائل بشكلٍ عام وعند القديس أوغسطين كانت إجابات الشك والقلق وأصل الشر والمعنى؛ باليقين والحب والنعمة والإرادة الحرة.. ولئن كان مبتغى **جيمس سميث** سابق الذكر في مؤلفه إعطاء القديس أوغسطين قيمةً مضافةً بوصفِه كتب في الأسئلة الوجودية الكبرى التي شكلت الإطار المحدِّد لملامح التيار الوجودي، بغية إضفاء قيمةٍ معاصرةٍ فيها دعوة مضمرة تشي بأن إجاباته قد تكون شافية لأسئلة الوجود الأمريكي المعاصر. إلا أننا نرى العكس من حيث المبدأ، فعند **القديس أوغسطين** نرى أصالة تلك الأسئلة بطرحها المباشر، والإضاءة على كل ما قد يعتري الإنسان من أسئلة ومونولوجات داخلية، وعبر بحثه الحثيث للوصول إلى إجابات يقينية يتجاوز فيها الشك الوجودي بمعناه **الماهوي**. كما وجدنا في مؤلفاته ليس إرهاصات الأسئلة الوجودية الحديثة والمعاصرة وحسب بل وإرهاصات التحليل النفسي والتحليل اللغوي والهرمونوطيقا ...

ما سبق كان تسويغًا لإضافة صفة الوجودي للشك عند أوغسطين في عنوان هذا البحث وتبيان القصد منه، والإشارة إلى الغنى الذي فاجأنا أثناء البحث وإن كنّا نختلف ونتحفظ على بعض ما حمله.

وبذلك حين اتُخذت وجهة البحث في الشك الوجودي عند أوغسطين تشظت إلى مطلبين:

أولًا: **الشك الوجودي** بالبعد المحايث لحياة القديس أوغسطين.

ثانيًا: **الشك الوجودي** ببعده الميتافيزيقي أي بحلته المعرفية.

أولًا: الشك الوجودي بالبعد المحايث لحياة القديس أوغسطين:

تذخر الكتب التي تتناول حياة القديس أوغسطين بوصفها رحلة الشك الحياتي الذي وجد منتهاه في اليقين الإلهي، وتذكر كيف ابتدأ حياته رافضاً لمذهب والديه _ أب وثني وأم مسيحية_ ورافضاً للمنظومة الأخلاقية في عصره، وكيف أنه انتقل للمانوية لما يقارب العقد تبناها ودعا أصدقاءه لاعتناقها، ومن ثم الخروج عنها لما وجد من ضعفٍ عند دُعاتها من جهةٍ وعند إله الخير الذي يقف عاجزًا أمام إله الشر من جهة أخرى، ليعود للشك ولكن مُسلحًا بالفلسفة بعد قراءة كتاب **لشيشرون** عن **الفلاسفةِ الشُّكاكِ**، لكن لم يكن ذلك العقل الوقّاد ليركن دون الوصول لإجاباتٍ وافيةٍ فكان أنِ انتقد الشكاك واطلع على الكتاب المقدس ثم كما يقول– ليقذف **الله النور** في قلبه ويصل إلى **اليقين**– ليصبح من أهم رجال الكنيسة في عصره.

لقد طال **الشك الوجودي** مجمل حياة القديس أوغسطين السابقة لعماده، وقد حدد مسار الشك الوجودي بين واقعتي القلق والطمأنينة، حين ابتدأ كتابه الاعترافات وفي المقطع الأول منه بالحديث عن قلق القلوب التي لا تستقر حتى تجد طمأنينتها **بالله**، ويمكن للباحث في سيرة أوغسطين رصد الموت كمنبع للقلق عنده، فالقلق بدأ عنده منذ وفاة صديق عمره الذي آلمه بشدة وأثر على حياته أيّما تأثير، وكيف تطور إحساسه بالموت حين **وفاة والدته** بعد أن سكن قلبها بعمادته في طريق العودة إلى الديار، حيث يصف أن الألم اختلط بسعادة يقينه أن والدته الآن قرب الله وأن مكانها لابد أفضل، بينما لا نجد في كتاب **الاعترافات** ذكر لوفاة ابنه مثلاً وكأنه إيذانًا بنهاية رحلة الشك وغلبة الطمأنينة ، فولده كان على نهج المسيح أيضًا علمًا أنه ابن خطيئة القديس في شبابه. اختلاف الموقف من الموت يرصد خبو قلقه وغلبة يقينه على الشك. فالموت المنغص الذي لا يُقهر ولا يُفهم، ولا يمكن تجاهله كما كان يقول في شبابه والذي كان يراه سلبًا وسقوطًا في العدم

أصبح نعمة العارف ويقينه بقرب لقائه المشتهى من الإله، بل وكما أشرنا استطاع أوغسطين مواجهته حين وفاة والدته بتحكمه بالحزن، وحين وفاة ولده بالتجاهل، على الأقل في كتاباته.

من سؤال الموت **حد الوجود الأوضح**، انبثقَ لديه سؤال الحياة **حد الوجود الأسبق**. فما غاية الحياة وما معناها أمام هذه النهاية الحتمية؟ الإجابة كانت على نفس الطريق لديه، فالحياة: هي بحثٌ عن الحقيقية وبلوغ الحقيقة لديه مطابقٌ لبلوغ السعادة، وفي طريق السالكين هذا يكون الكمال هو الغاية المرتجاة.

وبذلك عملية البحث عن الحقيقة، عن الحياة السعيدة، تحدث شكًا وجوديًا دائمًا محملًا بعدم استقرارٍ داخلي يؤجج عملية البحث على الدوام، إن هذا القلق الوجودي هو الأساس الذي ينطلق منه الإنسان للبحث عن السعادة الحقيقة التي تعني معرفة **الله**. وعبره يطلق الأسئلة الأكثر التحامًا بالوجود، يفنّد الشك في كل مرحلة من المراحل، فالإنسان كائنٌ حر، "إننا نبدأ بهذه الحقيقة وهي أنه لو لم توجد حرية اختيار ما كان الإنسان يستخدم وصايا الله وبالتالي ينال الجزاءات الموعود بها. إنه يعطينا الوصايا حتى لا يقدر أحد أن يحتج معتذرًا بجهله" [4] بل ويرى **عبد الرحمن بدوي** في هذا السياق "وفيما يتصل بالأخلاق يمكن أن نقول إن **أوغسطين** هو أول من أعطى **للحرية** معنىً جديدًا بأن **عرفها بأنها**: "القدرة على قول "لا" ومعنى هذا أن الحرية هي شيء مطلق فيستطيع الإنسان أن يرفض كل شيء.."[5] لكن هذا التوصيف لا يطمس تردده وضبابية موقفه تجاه الحرية، فحرية الاختيار هذه تعلن لنا خلال الكتب المقدسة لا بلغة بشرية بل إلهية. ولكن حينما تأتي مشكلة التوفيق بين الغاية الإلهية التي قال بها أوغسطين وبين الحرية نراه يحاول الفرار من الإجابة عن هذا السؤال، فيقول إن الأفعال الحرة كانت صورة من قبل، ويُلاحظ أن هذا الحل ليس حلًا بالمعنى الصحيح، بل هو حلٌ هروبيٌ وحسب.

القلق والموت والمعرفة والمعنى والحرية، الشك واليقين والتأويل والحب قضايا وجودية منبثة وغزيرة في فكر **أوغسطين**، وقد اتجه البحث لتلقف تلك المحطات الوجودية الشكية في حياة القديس

[4] – القديس أوغسطينس، النعمة والإرادة الحرة، دون ذكر اسم المترجم، منشورات كنيسة الشهيد مارجرجس سبورتنج، 1969، ص13.

[5] – عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، دار القلم، بيروت،1979، ط3، ص 37.

أوغسطين كورنولوجيًا كما جاء على لسانه في **كتاب الاعترافات** والذي يعد من أهم الآثار الإنسانية في السيرة الذاتية:

في **الكتاب الأول وفي الفقرة الأولى منه يقول أوغسطين:**

"يسر لي، يا مولاي، أن أعلم وأن أفهم هل الابتهال إليك سابق لحمدك وهل العلم بك سابق للابتهال. ولكن كيف يبتهل إليك غير العالم بك؟ إذ من لا يعرفك قد يبتهل إلى أحد سواك، أم هل يبتهل إليك المبتهل ليعرفك ويعلم بك"[6] إذًا يبقى السؤال متقدًا عنده حتى بعد وصوله لليقين! إنها بدايةٌ تكرس القلق المعرفي رغم أنها جاءت بعد عماده، في الكتاب الأول سرد عن طفولته، توصيف مخالف للمألوف فهو يرى **الطفولة مذنبة،** ولا يقر **ببراءة الأطفال،** ولربما كان ذلك إشارة منه لفكرة الخطيئة الأصلية، ذلك أنه كان يتعمد مخالفة القوانين، ويكره أنه كان مجبرًا على تعلم فنون البلاغة والخطابة التي أتقنها مرغمًا، دافعه إلى ذلك حب الظهور والتفوق على أقرانه.

الكتاب الثاني:

يحتضن هذا الكتاب سرديات الخطيئة، بدايةُ الفتوة التي انساقت لملذات الجسد ومفاسد النفس والأخلاق، ويسرد لنا قصص عما وصفه بالشرور والخطيئة وميز بين (شرٍ) كان ميلًا منه لمغامرات الجسد، و(شرٍ) دون أي غاية كحادثة السرقة التي اقترفها مع من دعاهم رفاق السوء، وكيف قال إنها كانت سرقة لأجل السرقة، لأجل الأذى ذلك أنهم رموا ما سرقوه، وهنا يبين تأثر النفس بالأصدقاء، وخروجه عن المنظومة الأخلاقية السائدة، لكننا نجده يقول:

" قل لي يا إلهي، كم أود أن أعلم– إن كانت هذه مشيئتك أيضًا– ما سبب إرجاء تعميدي آنذاك؟ ألخيري أطلقت لي– إن صح التعبير– أعنّةَ الآثام؟، أم هل أنها لم تطلق؟ ومن أين إذن يرن في أذني إلى حد الآن ومن كل صوب قول هذا أو ذاك: دعه يفعل فهو غير معمد!"[7] مثل وكأنه يجعل إرادة الله شريكة له بما وصفه من شرورٍ وآثام!

بل وأننا نقرأ له في هذا الكتاب عبارة تدل على تناقض الهدف من الاعترافات التي وجهها **لله:**

---

[6] – أوغستين، الإعترافات، نقله من اللاتينة إلى العربية ابراهيم الغربي، المجمع التونسي للعلوم ولآداب والفنون بيت الحكمة، قرطاج، 2012، ط1، ص 21.

[7] – المرجع السابق، ص 38.

"لمن أروي هذا الكلام؟ ليس لك، يا إلهي، بل أرويه لبني جنسي، لطائفةٍ من الجنس البشري، مهما كانت ضئيلة نسبة الذين قد يطلعون على مكاتيبي هذه[8]" وكأننا به يؤكد على أن ما يقوله موجه للناس وليس **لله**، مخالفًا لما وضعه من هدف كلي للاعترافات ولما كتبه أيضًا في الكتاب الأول.

الكتاب الثالث:

في هذا الكتاب يقدم أولى الإجابات التي قدمها القدر لشكه إذ أنه وقع على محاورة **لشيشرون (**هورتينسيوس**)** التي تدعو **للفلسفة** بوصفها **(**طريقًا **إلى الحكمة)**، ليلتقي في نفس الفترة **بالمانويين** ويطلع على فكرهم، ويميل ميلهم لما وجد عندهم من إجابات مشوقة لأسئلة الوجود على حد تعبيره، ولما وجد أيضًا من قبول بملذات الجسد وشهوات النفس التي لم تتركه لوقتٍ متأخرٍ، والتي كانت حاجزًا أمام تنصُّره حتى بعد أن قرأ الكتاب المقدس بإيمان. يشدد أوغسطين على أثر ملذات النفس وقوة تأثيرها وشدتها ويعترف بعظيم أثرها عليه حتى الثلاثينيات من عمره. إذًا أصبح قديسنا **(مانويًا)**.

الكتاب الرابع:

يسرد هذا الكتاب **السنوات المانوية التسع** من عمر أوغسطين، والتي احتوت ثورات فتوّته، وانشغاله بملذات الدنيا وضلوعه بالعمل الفكري والنقاشات الفلسفية وامتهانه الفصاحة وتعليمها، ودخوله عالم التنجيم وخروجه بعد تهافته أمام المنطق كما يرى، كما يورد هنا تأليفه لكتاب الملائم والجميل الذي ضاع من رفوف مكتبته. والذي يعتبر من أوائل المؤلفات التي طالت الفكر الجمالي.

الكتاب الخامس:

يبدأ **أوغسطين** كتابه هذا بتوصيف لأحد الأساقفة **المانويين** يدعى فاوستوس،" وكان **(**ربق الشيطان**)** الكبير[9]" ليستغرق في توصيف خيبته من عجز هذا الأسقف عن الرد على أسئلته، فلم يجد لديه أكثر من براعة الفصاحة التي يتقنها هو نفسه. ليعلن: " إذن خبا حماسي الذي كنت أكنُّه للأدب المانوي"[10] ويخرج من هذه المرحلة كما يعبر: لذلك قررت أسوةً بآراء الاكاديميين كما تؤول

[8] – المرجع السابق، ص 56.

[9] – المرجع السابق، ص 125.

[10] – المرجع السابق، ص 135.

بالعادة، ومدفوعاً بالشك في كل شيء متردداً بين كل الريب، قررت أن أهجر المانويين"[11] فالإيمان المستجد رحل وبقي أوغسطين حبيس الشك مجددًا.

الكتاب السادس:

يشرح فيه قدوم والدته إليه قاصدةً الأسقف أمبروزيوس ليقنع ابنها بالعمادة : " لم يكن يعلم أي ابن كنت لها، أنا الذي كنت أشك في كل شيء، ولا أعتقد بتاتاً أنه يمكن أن يوجد (طريق الحياة)"[12] لكن قام أمبروزيوس بفعلٍ عظيمٍ غير الكثير في نفس أوغسطين كما يروي فحيث "كان أمبروزيوس يعظ القوم موعظته العاجلة للغاية، كنت أسمعه فرحًا في خطبه يقول: **(الحرفية تقتل، أما الروح فتحيي)**، عندما كان يكشف النصوص التي كانت الحرفية فيها تبدو معلمة للباطل، مزيلًا روحانيًا الستار المجازي، ساكتًا عما قد يصدمني...كنت أمنع قلبي من كل تصديق خوفًا من الهاوية، وكان بقائي معلقًا يقتلني[13]" هنا تعرف أوغسطين على ما سوف يطلق عليه لاحقًا اسم(**التأويل)**، وأدرك المساحات التي يفتحها التأويل للعقل أثناء قراءة النص الديني، لتجاوز ما يمكن أن يضاد العقل وبذلك فُتحت الأبواب لتفسيرات ثقّلت النص الديني عقليًا.

الكتاب السابع:

أهم ما ورد في هذا الكتاب النزوع الأوغسطيني لفض إشكالية الشر، ذلك أن مشكلة الشر ظلت إلى فترة متأخرة من شبابه تقف حائلًا بينه وبين الإيمان اليقيني، فلم يستسغ فكرة أن **الله** خلق الشر ويحاسب الإنسان عليه، ولم يستسغ فكرة وجود إلهين **إله للخير** وآخر **للشر** وفقًا للطريقة **المانوية**، إلى أن اطلع على **الأفلاطونية** المحدثة والتي أخذ منها القول بأن الشر عدم أو سلب، أي أنه انعدام الخير وحسب، هو شيء غير مخلوق، وقد طابق بين مقولات الأفلاطونية المحدثة ورسائل القديس بولس الذي شغف بقراءة رسائله وتوصل إلى أن **الهدى نعمة من الله على الإنسان.**

الكتاب الثامن :

الكتاب الثامن كتاب الإرادة والجسد ومعركة الروح والنفس، صعوبة القرار العقلي بترك شهوات النفس للمضي في طريق الله، إنه عرض جريء لمدى تأثر القديس برغبات جسده، وكيف عاند

[11] – المرجع السابق، ص 151.

[12] – المرجع السابق، ص 156.

[13] – المرجع السابق، ص 160.

فكرة هجرانها لدرجة أنه أقنع صديقة **ألبيوس** بضرورة عيش تجربة المعاشرة الزوجية، كانت اللذة الجسدية العامل الأشد شراسة في مواجهة القديس الروحية، فقد عرض ضعف الإرادة أمام ملذات النفس، التي تأمر الجسد فيمتثل لها، ولكن في نفس الكتاب يشرح لحظة "التوبة" لحظة انتصار الإرادة بوصفها إشارة أو رمز أو لغة إلهية خاصة. وحصل هذا حين كان في صحبة ألبيوس وسمع صوتًا يناديه خذ واقرأ وحين قرأ تأتي عينه على رسالة للقديس بولس يدعو فيه لترك ملذات الجسد والانصراف عن الملذات ليأخذ قراره النهائي.. ويذهب بالبشرى لوالدته.

إنها العمادة إذًا البوصلة التي ستوجه جل كتابات أوغسطين حتى وفاته.

الكتاب التاسع:

يتناول فيها أوغسطين تركه لمهنة الخطابة التي بررها بوضع صحي لم يلم به. وعرض أيضًا رحلة العودة إلى الديار مع والدته وابنه بعد أن نال العمادة ويسهب في عرض الأحاديث التي دارت بينه وبين والدته عن مملكة الله والعالم الآخر ونعمة الإيمان الأمر الذي خفف عنه كما ذكرنا ألم فراق والدته التي وافتها المنية في هذه الرحلة.

الكتاب العاشر:

في هذا الكتاب خرج القديس عن مسار الاعترافات الحياتية ليسرد لنا مسيرة الشك المعرفية وعملية تحصيل العلوم ودور الذاكرة في حفظ العلوم. وهذا ما سنتوسع به في بيان الكوجيتو الأوغسطيني لاحقًا.

الكتاب الحادي عشر :

يبدؤه أوغسطين بالتساؤلات التي لم تفارقه حتى بعد حلول اليقين: "مولاي، بما أن البداية لك، فهل تجهل يا ترى ما أقوله لك، أم هل ما يقع في الزمان تراه في الزمان فقط؟" كما يسرد في هذا الكتاب نقاش فلسفي رفيع المستوى عن فكرة الزمن لم تصل خواتيمه لإجابات شافية للسؤال. وهنا تظهر لنا الضبابية مرة أخرى بأن يبقى السؤال مفتوحًا الأمر الذي يشير إليه أوغسطين نفسه في كتابه الاستدراكات، حيث يعالج بعض القضايا التي تركها عالقة ويشير إلى بعضها الآخر تاركًا الباب مفتوحًا أمام إجابات لاحقة.

الكتاب الثاني عشر:

يناقش فكرة الخلق من عدم وفكرة المادة الأولى والنور والظلام طالبًا من الإله العون في البوح الحقيق.

"سأجيبهم بما يلي، وستكون أنت، يا إلهنا جميعًا، الحكم الشاهد على ذلك:

هل ستعتبرون باطلًا، ما يقوله لي الحق، بصوته القوي، في أذني الداخلية، عن ديمومة الخالق الحق، وعن ثبوت جوهره المطلق عبر الأزمان،".[14]

وهنا تظهر فكرة التأويل ببعد فلسفي حين يميز أوغسطين بين نوعين من التعليم: التعليم الذي أطلق عليه اسم قانوني والتعليم التأويلي والذي أشفق على العامة منه، كما أنه فتح سقف هذا العلم لترفده قراءات لاحقة، مؤكدًا على أن فكرة التأويل فكرّة كاشفّة بشكلٍ دائم:

"ما يضرني لو أمكن لهذه الكلمات أن تؤول التأويلات المختلفة، متى كانت جميعها صحيحة؟ ما يضرني أن يفهم شخص آخر المعنى الصحيح لكاتب النص المقدس فهمًا مخالفًا لفهمي؟ فنحن جميعنا الذين نقرؤه، نحاول أن نكتشفه، وندرك مقاصد الذي نقرؤه"[15]

الكتاب الثالث عشر:

هو تطبيق لمنهجه التأويلي على قصة الخلق التوارتية، وتقديم رؤيته لتلك القصة، متأثرًا بالأفلاطونية. وهو يدافع عن طريقته في فهم الكتاب المقدس بالقول إن فهم النصوص بظاهرها سيبدو قاصرًا لما يبدو فيها من تناقض وغموض، لذلك كان التأويل أوغسطينيًا بامتياز. وفي هذا الكتاب تحدث عن يقينية المعرفة المتأتية من يقينية الذات التي تحيا ومن ثمة تشك، أي أننا نرى عرضًا للكوجيتو الأوغسطيني.

رأينا فيما تقدم من عرض أن دليل أوغسطين على ثبوت إجاباته هو ضرورة تصديق ما يعبر عنه بأنه صوت الحق في أذنيه. وبذلك يمكننا القول أن كتاب الاعترافات الغني والمحمل بالرحلة الشكية لأوغسطين، وإن كان غني بمحاطاته الوجودية المعرفية، ودلالاته التاريخية، إلا أنه بالمطاف الأخير تجربة شخصية، تدلل على ذاتوية محضة بالتعاطي مع معطيات التجربة الإنسانية التي

[14] – المرجع السابق، ص 411– 412..

[15] – المرجع السابق، ص 419– 420.

مرت بها هذه الذات، فلو افترضنا تغير معطى ما من المعطيات التاريخية المذكورة لربما تغير ركن من أركان نظرية المعرفة لدى أوغسطين، وأن نقبل بدليل صوت الحق في أذنه هو تجاوز لأسس المعرفة الموضوعية المتعارف عليها، بل وحتى من رغب بالأخذ بمعطيات التجربة المعرفية الذاتية، المحاطة بالعناية الإلهية وصوت الحق، سيصل إلى أن هذه العناية هي العناية المسيحية، وصوت الحق هو الصوت الكنسي، وبذلك تجاوز للديانات التوحيدية التوراتية في عهد أوغسطين ولاحقًا الديانة الإسلامية، وتجاوز لفكرة الإله بالمعنى الفلسفي وإن كان أوغسطين قد حاول إدخال بعض الأفكار الأفلوطينية والرواقية.

ثانيًا: **الشك الوجودي ببعده الميتافيزيقي أي بحلته المعرفية.**

أولى خطوات الشك المنهجي لدى أوغسطين كانت نقده للأكاديميين، "فبعد أن كانت الفلسفة في عصرها الذهبي دراسة تزهو بأنها تطلب الحقيقة بالبرهان العقلي وتوحي بالزراية بالديانات الوثنية وأساطيرها ومعتقداتها الخرافية التي لا تستند إلى أي دليل، أصبحت نتيجة لجهود الشكاك القائلين باستحالة المعرفة العقلية اليقينية تغري بالرجوع إلى الدين الذي لا يلجأ في التماس المعرفة إلى البرهان العقلي بل إلى الاعتقاد بالوحي الإلهي"[16] والذي جاء بناءً على خطورة أفكارهم بشكلٍ عام، ولأن مذهبهم كان العثرة الأساسية في طريقه للبحث عن الحقيقة. ذلك أنهم يرون الحقيقة أمراً مخفيًا أو أنها تبدو بطريقة غامضة، الأمر الذي يوجب على الرجل الحكيم السعي لما هو محتمل أو فلنقل ما يشبه الحقيقة ويقول في هذا السياق: "يبدو أن حجج الأكاديميين تنشر الضبابية بيننا، وكي لا يعتقد الناس أنا فخورون بمعارضة سلطة هؤلاء المثقفين ومن بينهم شيشرون سأدلي ببضع عبارات ضد أولئك الذين يبدو أن حججهم تتعارض مع الحقيقة، ثم سأريك سبب إخفاء الأكاديميين لرأيهم". [17]

أشار أوغسطين إلى التناقض الذي يتسم به أصحاب هذا المذهب ذلك أنهم ينكرون قدرة الإنسان على بلوغ الحقائق من جهة، وفي نفس الوقت يرون أن الإنسان من الممكن أن يصبح حكيمًا فكيف من الممكن أن نعطي اسم حكيم لشخص يقول إنه لا يعرف شيئًا لا يعرف لماذا يحيا وكيف يحيا

[16] عويضة، الشيخ كامل محمد محمد، أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص ١٦.

[17] –Augustinus.; Translation from the Latin by Mary Patricia Garvey. **Against the Academicians**, (Contra Academicos), Marquette University Press, 1957, p59.

وهل هو حقًا حي. كما أنه استخدم الجدل سلاح الفلسفة للنيل منها عند الأكاديميين حين نقض مبدأهم الأول وهنا تجدر الإشارة إلى أن **مذهب الشكاك** يقوم على **قضيتين أساسيتين:**

1- نحن لا نستطيع أن نعرف أي شيء معرفة يقينية.
2- لا يجب أن نصدق أي شيء.

يجادل أوغسطين في القضية الأولى حيث يقول:

1. إما أنها صادقة أي (نحن لا نستطيع أن نعرف أي شيء معرفة يقينية) وهنا نكون قد توصلنا إلى حقيقة واحدة على الأقل.
2. وإما أنها (نحن لا نستطيع أن نعرف أي شيء معرفة يقينية) خاطئة وهذا يعني أنه يمكننا معرفة شيء ما معرفة يقينية.
3. أو أنها (نحن لا نستطيع أن نعرف أي شيء معرفة يقينية) وهنا على الشاك أن يقبل بأنها إما صحيحة وإما خاطئة وهذه العبارة الفصلية في ذاتها حقيقة.[18]

كما ينقض في السياق نفسه الزعم الذي يقول بعدم امتلاك الحكيم للمعارف اليقينية، أي عدم امتلاكه للحكمة، بأن يفترض قيام مبارزة بين الحكمة والحكيم فإما أن تغلبه وبالتالي فهو ليس حكيم، أو يغلبها فيكون مرغمًا على الاعتراف بها، لأن عدم اعتراف الحكيم بالحكمة أفظع من عدم معرفتها. وبذلك يدحض أوغسطين زعم الشكاك بوجود حكيم يجهل الحكمة. [19]

كما ويضيف الحجة الأخلاقية أثناء تفنيده لآراء الأكاديميين، مشددًا على الآثار السلبية التي تتأتى من نشر فكرة الاحتمالية وتسويغ الخطأ:

"ماذا لو سمع بعض الشباب حينما يقول هؤلاء الرجال: 'من المعيب أن نخطئ ولهذا السبب لا ينبغي أن نوافق على أي شيء؛ ومع ذلك، عندما يفعل كل شخص ما يبدو محتملاً بالنسبة له، فإنه لا يتردد ولا يخطئ، بل يتذكر فقط أن كل ما حدث في ذهنه أو حواسه لا ينبغي قبوله

[18]- Ibid, 63-65.

[19]- Ibid, P 73.

كما لو كان صحيحًا عند سماع هذا، إذن، يتآمر الشاب على عفة زوجة رجل آخر؟ أنا أسألك يا ماركوس"[20]

وهنا وبعد أن كان نقد الشكاك لدى أوغسطين أقرب لنزال فكري، نبه إلى أن الاستمرار بهذا الشكل من الجدل يؤثر على سلوك الأفراد:

"ومن ثمة وأثناء معارضتي لألفاظهم أصبحت أكثر تيقظًا لأثرها على أفعال وسلوك الرجال، ثم نظمت العديد من الحجج القوية ضدهم، لدرجة أني لم أعد أهزأ منهم، بل بت منزعجًا وإلى حدٍ ما آسفًا أن رجالاً بثقافة عالية وحماس متقد قد انخرطوا في مثل هذا الجدال."[21]

لقد فند **أوغسطينوس** كتاب **شيشرون** بالجدل والبرهان لما احتواه من أغاليط ولكنه وفي نهاية كتابه الرد على الأكاديميين قدّم تصوراً آخرَ لافتاً للأكاديمية الجديدة، فقد رأى أن أفلاطون ومن قبله فيثاغورث حين وصولهم لفكرة العالم الحقيقي وجدوا أن المعرفة بهذا العالم هي معرفة حصرية لخاصة الخاصة من الفلاسفة. وأن الحمقى _على حد تعبيره_ قد يصلون لآراء لا ترتقي لموضع المعرفة الحقة، لذلك قام **بوليمونس** ومن بعده **أركسيلاوس** بالصمت على ما قدمه **زينون** من جدل يخالف تعاليم الأكاديمية الأفلاطونية؛ لانتشار الشر والمعرفة الخاطئة ذلك الوقت ولحماية معتقداتهم من آراء الحمقى تاركين المعرفة الحقة لأهلها من فلاسفة المستقبل، الذي كان أفلوطين على حسب تعبيره أحدهم[22]. لكن يبقى مثل هذا الرأي رأيًا تخمينيًا قائمًا على وجهة نظر شخصية، وإن وجد في تاريخ الفلسفة العديد ممن يشير إلى مثل هذه الطرائق في إخفاء المعرفة، إلا أنها تبقى وجهات نظر غير مدعمة بالأدلة البرهانية.

وبعد أن ينتهي أوغسطين من انتقاد الشكاك وإبطال حججهم، يبدأ في إشادة حجته في نقد الشك كمفهوم وليس الشكاك وحسب، والتأسيس لنظريته في اليقين:

مبدأ الشك الوجودي (الكوجيتو الأوغسطيني) :

بعد رحلة الشك التي رافقت حياة **أوغسطين** وصل القديس لقبلته بأن ألقى **الله النور** في قلبه، إذًا اليقين هو من عند الله وبالله لديه، لكنه كان مهجوسًا بوضع هذا في إيهاب المعرفة النظرية

[20]– Ibid, P 76.

[21] – Ibid, P 75.

[22] – look: Ibid, p 73–83.

بالإضافة للإشراق، من جهة، وبالتدليل على يقينية المعرفة من جهة ثانية. وكان توسل **الله** قي ذلك **وباسم الله** بدأ:

يذكر أوغسطين في اعترافاته أنه رَكن للحواس في بداية بحثه عن الحقيقة، وظن أنها المصدر الرئيسي للمعرفة، حيث اعتقد أن المادة هي كل شيء بتأثر من **المذهب المانوي الحسي**. وأضاف أن المعرفة الحسية هي إدراك كيفيات الأشياء عن طريق الحواس، وهي ليست واحدة لأن هناك كيفيات ندركها بحواس خاصة، في حين توجد كيفيات أخرى يمكن إدراكها بعدة حواس. لم يكن أوغسطين يعتقد أن طبيعة الأشياء المادية لها من الاتساق ما يكفي لأن تكون موضوعات لأي معرفة يقينية، فعالم الحس هو عالم يتأرجح بين الوجود واللاوجود وبذلك لا يصلح إلا للمعرفة الظنية، وبتأثير من أفلوطين يرى أن الحسية الخالصة تؤدي لامحالة إلى شك كلي. فإن كان الواقع الحقيقي سيرتد في النهاية إلى الظاهر المحسوس، فإنه سيكون في حالة تدفق دائم، وسيكون مليء بالمتناقضات، ولن يكون من الممكن العثور فيه على أي يقين." وبذل كل ما يصل إليه المرء عن طريق الحس، وما نسميه بالمحسوس، لا يكف لحظة واحدة عن التغير... وكل مالا يبقى مستقرًا لا يمكن إدراكه، لان معنى الإدراك هو الفهم عن طريق العلم، والرد لا يستطيع أن يفهم التغير المتصل. ومن ثم فلا يمكن للمرء أن يبحث أو يأمل أن يصل إلى حقيقة أصلية عن طريق حواس الجسم"[23]

والإحساس ينجم عن الاتحاد بين النفس والجسم، فالعلاقة بين هذين الجوهرين هي كعلاقة الصانع والأداة أو الفنان وآلته، وبذلك فالإحساس هو حالة من حالات استخدام النفس للجسم وهو وعي النفس ونشاطها إثر تلقيها تنبيهًا من أعضاء الحواس.

" أطلقت لجميع حواسي العنان، كرسلٍ أوفياء، لتبحث عنك وتطاردك... وبقوتها لم تستطع أن تلحق بك وتدركك وقد تملكتها الدهشة كيف اقتحمت يا إلهي قلبي ودخلته!!

قالت العين: لو كان ذا لون لرأيته كيف جاز.

قالت الأذن: لو كنت سمعته لعرفته من وقع أقدامه.

[23] – جلسون، اتين، روح الفلسفة المسيحية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، 1969، ط3، ص 294.

قالت الأنف: لو تنسمت رائحته لتأكدت من وجوده.

أجاب اللسان: لو استطعت أن أتذوقه لعرفته من طعم مذاقه.

أجابت اليد: لو كان ذا جسد لاستطعت أن أتحسسه."[24]

إذًا لم يركن أوغسطين إلى المعرفة الحسية كمعرفة يقينية، لذلك توجه صوب العقل، إذ أفرد محاورة كاملة بينه وبين العقل ينشده العون في التوصل إلى اليقين، وكان أن طلب معرفة الله والنفس كموضوعات للمعرفة اليقينية كما يرى:

أوغسطين: ها قد أنهيت صلاتي.

العقل: والآن ماذا تريد أن تعرف؟

أوغسطين: كل ما سألته في صلاتي.

العقل: أوجزه ببعض الكلمات.

أوغسطين: أتوق إلى معرفة الله والنفس.

العقل: لا شيء أكثر؟

أوغسطينس: لا شيء على الإطلاق!"[25]

إذًا ما أراده أوغسطين تأسيس معرفة متينة **بالله** والنفس، تتطلب هذه المعرفة الارتكاز على أسس ثابتة، وعلى يقين أول، وأول ما يجب أن يقوم به العقل كما يرى أوغسطين هو إثبات ذاته، وذلك بإثبات أنه يستطيع معرفة شيء ما، أي أن أوغسطين قبل تأسيسه اليقين بوجود **الله**، أسس إمكانية الحقيقة واليقين، وذلك بإثباته لليقين الأول الذي يتجاوز كل حجج الشكاك، جاعلًا من الشك منطلقًا لليقين.

[24]– أوغسطين، إلهي أعترف لك، ترجمة بانوب عوض، مكتبة كنيسة الشهيد مارجرجس_سبورتغ، بلا تاريخ، ص 8–9.

[25]أوغسطين، محاورة الذات، نقله إلى العربية الخور أسقف يوحنا، دار المشرق، بيروت، ط1، 2005، ص 13. –

وفقاً لأوغسطين هنالك حقيقة لا يمكن الشك فيها وهي **وجود الأنا**. يرى أوغسطين أن الإنسان كائن عاقل يتميز عن غيره من الموجودات بالعقل، كما أن الإنسان كائن حي، مثل باقي الحيوانات، يمتلك حواساً يستقبل من خلالها ما يحدث حوله، إلا أن الذي تفتقده الحيوانات هو الحكم على ما تعايشه أو ما يحدث حولها، وبالتالي فإن وجود الإنسان هو وجود فاهم.

يتطرق أوغسطين الآن إلى قضية أن الإنسان يعيش ولا يشك بأنه يعيش، أو –إن صح التعبير– أنه يوجد" إننا موجودون ونعرف ذلك؛ ونحب هذا الوجود وهذه المعرفة على أننا لا نقع ضحية الوهم في هذه المناسبات الثلاث. وليس الأمر هنا كما هو بالنسبة إلى الأشياء الخارجية التي لا نستطيع الوصول إليها إلا بواسطة حواسنا... غير أنني هنا، وبعيداً عن كل وهم خيالي أو اعتباطي، على يقين من أنني كائن موجود أعرف ذاتي وأحبها وأتحدى بهذا اليقين اعتراضات الأكاديميين. وعبثاً يقولون لي : "ماذا لو كنت تخطئ؟" إن أخطأت فأنا موجود".[26]

استطاع أوغسطين التغلب على الشك عبر الشك نفسه، أي أنه جعل من تلك اللحظة الشكية منطلق اليقين، فالإنسان الذي يشك يعرف أنه يشك، وهو لا يساوره الشك بفعل الشك نفسه، بل أن كل ما يفعله هو البحث عن مصدر اليقين لشكه ذاك. يتساءل أوغسطين من يشك بأنه يعيش، يتذكر، يدرك، يريد، يفكر، يعرف، ويحكم؟ الشك يتضمن حقائق أخرى كالفكر والإرادة والتذكر، لأن الذي يشك يحيا، وإذا تساءل لماذا يشك، فإنه يتذكر، وإذا كان يشك فإنه يعرف أنه يشك، وإذا كان يشك فإنه يريد أن يعرف اليقين، وإذا كان يشك فإنه يفكر فيمكن إذًا الشك في أي شيء ما عدا الفكر الذي بدونه لا يمكن أن نشك. بالتالي عندما يشك الإنسان لا يمكن أن يشك بالفاعلية التي يتميز بها العقل، "ولكن أيضًا من يقول، (أنا لا أعرف) يعرف، ويقولها بثقة وصدق، ويعرف أنه يقولها حقًا، يعرف بالتأكيد ما يجب معرفته. لأنه يميز أيضًا من يعرف. من لا يعرف متى ينظر إلى نفسه حقًا ويقول: لا أعرف. ولأنه يعلم أنه يقولها حقًا، فمن أين يعرفها إذا لم يكن يعرف ما الذي يجب أن يعرفه؟[27]" من الواضح أن الفاعليات العقلية التي ترافق عملية الشك لا يمكن أن

[26] – أوغسطين، مدينة الله، المجلد الثاني، ترجمة يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2، ص 42–43.

[27] – Augustin, **On the Trinity** Books 8–15, P45.

يُشك فيها وهي التذكر، الإدراك، الإرادة، التفكير، المعرفة، والحكم، والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة، لكن ليس بالحياة العادية للكائن الحي، وإنما بالحياة العقلية للكائن الحي.

" وكم من معارف من هذا القبيل تحملها ذاكرتي، وهي معارف موجودة بعد، كأنها كما قلت موضوعة تحت الطلب ونقول بشأنها حفظناها وعرفناها! فلو توقفت، مدة وجيزة من الزمن، عن تذكرها لرأيتها تغمر من جديد، وكأنها تتشتت في حجرات أكثر خفاءً "[28]

إن التذكر والتفكير والإدراك هي عمليات عقلية لا يشك فيها العقل لأنها موجودة فيه بالذات، " فماذا يعني أن أتذكر؟ إنه يعني أني أنا نفسي ذاكرة[29]"والإنسان لا يشك من أجل الشك نفسه، وإنما يشك من أجل بلوغ اليقين وهنا يغدو الفصل بين موضوع الشك والذات التي تشك واضحاً، فالموضوع يمكن أن يُشك به بينما لا يكمن أن يُشك بيقينية الذات التي تشك لأنه من خلالها تتم محاولة إدراك الحقيقة اليقينية. إن أوغسطين يسعى إلى التأكيد بشكل قطعي بأن الذات التي تشك لا يمكن أن تكون موضوعاً للشك لأن الحياة هي اللحظة اليقينية الأولى فيها، وهذا يعني أن الإنسان لا يمكن أن يشك بأنه يعيش. وبحسب أوغسطين فإن كل الكائنات تستمد وجودها من وجود الله الحق، وليس لها من ذاتها إلا عدم قدرتها على الوجود أي اللاوجود فهي تميل بغير انقطاع صوب العدم، لكن الله يحافظ عليها في الوجود، وكان أن عبر الله عن نفسه في كلمته، وهو يحوي في ذاته نماذج كل الأشياء الممكنة وصورها المعقولة وقوانينها، وبذلك فقد خلق **الله** الأشياء جميعًا بكلمته وبكلمته يحافظ عليها، وقد تمت عملية الخلق كلها دفعة واحدة دون تتابع في الزمن وقد خلق الله ما كان وما هو كائن وما سيكون دفعة واحدة وقصة الخلق في ستة أيام يجب أن تفهم بالمعنى المجازي وحسب. وهنا نلحظ المزج الذي قام به أوغسطين بين المسيحية والنظرية الرواقية في العلل البذرية في نظرية الخلق، حيث رأى أن الله خلق إلى جانب الموجودات التي خلقها في صورتها الكاملة، بذور الأشياء التي ستظهر في المستقبل، كما خلق القوانين التي تحكم

[28] – أوغسطين، الاعترافات، ص 312.

[29] Heidegger Martin, The Phenomenology Of Religious Life, Transleted by Matthias Fritsch and Jennifer Anna Gostti-erencei, Indiana University Press Boomington and Indianapolis,2004, p 139.

تطورها في الزمان، فكما أن الأم تكون حبلى بطفلها، كذلك العالم مليء بعلل الأشياء المقبلة والتي ستولد فيما بعد .[30]

يربط أوغسطين **المعرفة بالحب** بشكلٍ وثيق، "إلهي... ما لم أحبك كما ينبغي فذلك لأنني لم أصل بعد إلى عمق معرفتك. في قصور معرفتي بك فتور لحبك نحوك[31]" فالمعرفة تسبق الحب. هذا يعني أن الشيء الذي يُحب يجب أن يُعرف مسبقاً حتى يحبه المرء، وهكذا فإن الجمال يُعرف من خلال ملاحظة ومعرفة الأجسام الجميلة في هذا العالم، وحب الشخص الخيّر يُعرف من خلال معرفة الفضيلة. فيما يتعلق بالعلوم تلعب سلطة المعلمين المهمين دوراً كبيراً، إلا أنه في هذه الحالة يجب على المرء أولاً أن يلم بالمصطلحات الاختصاصية. هنا لا يقصد أوغسطين المعرفة الكلية والشاملة بعلم ما، وإنما المعرفة الأولية التي تحفّز الإنسان على محبة موضوع ما ومتابعة البحث فيه.

4. الحقائق اليقينية:

وبعد أن أثبت أوغسطين يقينية المعرفة عبر شكه المنهجي، اتخذها ركيزة لتجاوز نفسه ومحاولة معرفة **الله**، وكان أن قال بوجود أربع حقائق كبرى يقينية تتميز جميعها بالضرورة والثبات والأزلية، حيث تفرض نفسها على كل العقول لأنها ضرورية ومستقلة عن الأشياء الحسية الخارجية وهي مطلقة الصدق، هذه الحقائق هي الحقائق الرياضية والمنطقية والأخلاقية والميتافيزيقية.

فالحقائق الرياضية تشمل قواعد الرياضيات، وبشكل خاص علم الحساب، وبالتالي فإن الأعداد وعلاقاتها تمتلك وجوداً خاصاً مستقلاً عن الذات العارفة والقضية 3×3 = 9 تُشكل حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها، وهي بشكل جازم وضروري صحيحة، إن طرق حساب الأعداد تختلف حسب قدرات البشر، بعض الأشخاص يجدونها سهلة، والبعض الآخر يجدها صعبة، وحيثما يوجد خطأ ما، فإن سببه يعود للأشخاص الذين يقومون بعملية الحساب وليس للأعداد أو العلاقات العددية نفسه. بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الحقائق تبقى نفسها يقول في الكتاب الثاني من محاورة النظام: "إن النسبة واحد إلى اثنان واثنان إلى أربعة تنشئ علاقة حقيقية من التناغم! إنها لم تكن البارحة

[30] – انظر: إيتان جولسن، روح الفلسفة المسيحية، ص 90.

[31]– أوغسطين، إلهي أعترف لك، ص 20.

حقيقية أكثر ما هي اليوم، ولن تكون غداً أو بعد غد غير حقيقية، وهذه الحقيقة لن تتوقف عن الوجود حتى لو انهار العالم كله". إنها تبقى دائماً ذاتها، بينما العالم هو اليوم ما لم يكنه البارحة أو سيكونه غدا. بالإضافة إلى ذلك لا يغفل أوغسطين الإشارة إلى الهندسة التي تتضمن حقائق لا يُشك بها. تلك الحقائق التي تمتلك وجوداً خاصاً بها، وهي خارج نطاق الحواس لأنها ليست جسدية، ويؤكد أوغسطين ذلك عندما يتحدث عن الأشكال الهندسية التي يمكن إدراكها من قِبل النفس العاقلة.

ويشير أوغسطين إلى الحقائق المنطقية بوصفها حقائق لا تربط بأي محتوى ويقينية بشكلٍ مطلق ويعتبرها أسس المعرفة التي لا يمكن المساس بها لأنها دائماً صحيحة، وغير مرتبطة بأية خبرة، وهي تتضمن يقينها وصدقها في ذاتها، وفي حال كانت القضية صادقة فإن نقيضها كاذب بالضرورة، وهذا يعني أن القضية لا يمكن أن تكون صادقة وكاذبة في الوقت نفسه عندما يكون في العالم أربعة عناصر، فلا يوجد خمسة، وعندما يكون هنالك شمس واحدة، فلا يوجد اثنتين، النفس ذاتها لا يمكن أن تكون فانية وخالدة، الإنسان لا يمكن أن يكون في الوقت ذاته سعيداً وحزيناً.[32] يركز أوغسطين على قانون الهوية المنطقي وعلى صحته التي لا تتزعزع، وبالتالي فهو يمتلك وجوداً مستقلاً لا يخضع للتغيير.

أما الحقائق الأخلاقية فهي يقينية عند أوغسطين كما الحقيقة المنطقية والحقيقة العددية، فالحكمة خير مشترك بين العقلاء وهي تعني فيما تعنيه معرفة السعادة التي تسعى إليها النفس، ومن المفاهيم الأخلاقية الثابتة أيضًا **مفهوم العدالة**.

ومن الحقائق الميتافيزيقية نقاش إن كانت تلك الحقائق أدنى من العقل أم هي مساوية له أم أنها أسمى؟

يناقش أوغسطين أنه من غير الممكن أن تكون أدنى من العقل، فلو كانت كذلك لاستطاع العقل الحكم عليها كما يفعل مع الأشياء الحسية إلى أنه يقول بوجوبها وليس فقط وصفها. الحقائق اليقينية ليست موضوعًا لحكمة بل أنه يكتشفها وحسب.

[32]– Look: Augustinus. Against **the Academicians**, (Contra Academicos).

أما القول بأن هذه الحقائق مساوية لعقلنا فإنه يقتضي أنها متغيرة كما عقولنا وهذا ما ينافي ثباتها.

لذلك نراه يصل إلى أن هذه الحقائق أسمى من العقل. وهي معيار الحكم على أنفسنا، تفرض نفسها على كل العقول باختلاف مشاربها. لكن ما هو مصدر هذه الحقائق؟ هل هي النفس التي تحملها؟

يرفض أوغسطين هذا الفرض رفضًا قاطعا فالمعلول حسب ما يرى لا يمكن أن يحتوي أكثر من علته ولا أن يساويها. وهكذا يصل أوغسطين أن القول بعلة لهذه الحقائق يستلزم مبدأ للكمال المطلق. فهذه الحقائق تستلزم حقيقة باقية غير وغير مخلوقة. وهذا ما أطلق عليه لاحقًا بنظرية الإشراق الإلهي الأوغسطيني والتي أخذها عن الأفلاطونية المحدثة. فوجود الله أمر بديهي يتأسس على ثبات الحقيقة مهما كان مضمونها سواء كانت رياضية أم أخلاقية فما هي سوى انعكاس للصفات الإلهية بالثبات والأزلية.

إذًا **الكوجيتو الأوغسطيني** أنا أحيا إذًا أنا أفكر، وأنا أشك إذًا أنا موجود، ويمكن أن أخطئ لكن كوني مخطئًا يعني وجودي ويعني معرفتي أني مخطئ. إذًا هناك معرفة متأتية من يقينية الوجود والذات التي تفكر. وهناك حقائق يقينية ثابتة لا يختلف فيها لأنها ضرورية وثابتة. هذا الكوجيتو الذي نجد نسخته المطابقة لاحقًا عند ديكارت الذي نفى أنه أخذه عن أوغسطين بشكلٍ مريب علمًا أنه ابن الثقافة الأوغسطينية. قلنا إن هذا الكوجيتو يجد يقينيته في الذات التي تفكر ومن ثم تشك، وتلك الحقائق التي تستلزم حقيقة سامية هي الكمال الإلهي. لكننا نلحظ أن كل مقومات التدليل والبرهان على أسس يقينية ثابتة تنطلق من الذات وتعود إليها. تنشد في مبتغاها النهائي معرفة النفس والله، هذان المفهومان اللذان نميا عبر التاريخ لدرجة القول بتضاد الحقائق التي تحيط بهما، كما أن تطور العلوم والمناهج اللاحق لأوغسطين، أفرز حقائق رياضية قوضت يقينية الحقائق الكلاسيكية، وأفرز مباحث منطقية آخرها **المنطق الفوضوي** القائم على **الاحتمال واللايقين**، وقد تشظت منظومة الأخلاق المعاصرة إلى منظومات متناقضة ومتضادة ومتنافرة حسب الثقافات الحاملة لها، ويبدو أن ميتافيزيقا العصر مضطربة وغير متسقة أيضًا. فإذا ما علمنا كل ما سبق ذكره ما الذي يبقى من الكوجيتو الأوغسطيني ومن حقائقه الثابتة؟ في هذا التساؤل نوعٌ من إسقاط العلوم المعاصرة على مرحلة تاريخية سابقة، لكن البحث إذ تناول هذا الإسقاط فهو بهدف التحقق من اليقين الذي ادعى أوغسطين ثباته وضرورته الدائمين.

كما تجب الإشارة في السياق نفسه إلى فكرة التأويل الأوغسطينية التي تناولها البحث في مواضع مختلفة، بوصفها فكرة تفتح باب التساؤل الداخلي من سياق النصوص الأوغسطينية عن فكرة اليقين نفسها، حين تكون عرضة للفهم والتفسير والتأويل!

الخاتمة:

تعتبر تجربة القديس أوغسطين في الشك المؤسِس لليقين على المستوى الأنطولوجي من أقدم التجارب المكتوبة، وخلص البحث إلى أن رحلة البحث عن اليقين والتدليل عليه استغرقت حياته أغلبها، وبلا شك فإن ما قدمه أوغسطين في هذا السياق بالغ الأهمية من الناحية الحياتية التي لخصت التيارات الفكرية المعاصرة له، ومن الناحية المعرفية التي انتقل عبرها من محطة فكرية إلى أخرى، معتنقًا المانوية تارة ومنتقدًا الشكاك تارة أخرى، باحثًا عن مسالك اليقين وأخيرًا ناطقًا بما دعاها بالمعرفة اليقينية والحقائق اليقينية. نحن إذ انتقدنا ما قدم القديس أوغسطين من حجج وبراهين في رحلة الشك إلى اليقين، إنما قمنا بهذا من منطلق التكامل المعرفي ذلك أن تلك الحجج مع أهميتها في وقتها، إلا أنها تهافتت مع تقدم الزمن وتطور العلوم، الأمر الذي يمس جوهر غايتها وهو اليقين والثبات.

المراجع:

1. أوغسطين، النعمة والإرادة الحرة، دون ذكر اسم المترجم، منشورات كنيسة الشهيد مارجرجس سبورتنج، 1969.
2. أوغسطين، الاعترافات، نقله من اللاتينية إلى العربية إبراهيم الغربي، المجمع التونسي للعلوم ولآداب والفنون بيت الحكمة، قرطاج،2012، ط1.
3. أوغسطين، محاورة الذات، نقله إلى العربية الخور أسقف يوحنا، دار المشرق، بيروت، 2005، ط1.
4. أوغسطين، إلهي أعترف لك، ترجمة بانوب عوض، مكتبة كنيسة الشهيد مارجرجس_سبورتغ، بلا تاريخ.
5. أوغسطين، مدينة الله، ترجمة يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2.
6. عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، بيروت، دار القلم، 1979، ط3.
7. جلسون، اتين، روح الفلسفة المسيحية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، 1969، ط3.
8. عويضة، الشيخ كامل محمد، أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

9. James K. A. Smith – **On the road with saint augustine** _ a real-world spirituality for restless hearts- Brazos press, Baker Publishing Group, 2019.
10. -Augustin, **On the Trinity Books 8-15**, Edited by Gareth B. Matthews, Cambridge University Press (Virtual Publishing), Press 2003.
11. -Augustinus. Translation from the Latin by Mary Patricia Garvey. **Against the Academicians**, (Contra Academicos), Marquette University Press, 1957.

12. Heidegger Martin, **The Phenomenology of Religious Life,** Translated by Matthias Fritsch and Jennifer Anna Gostti-erencei, Indiana University Press Boomington and Indianapolis,2004, p 139